الفصل الثـــــــاني

اعتذار ســــائر الخــــــلق إلى الله

المبحث الأول

اعتذار صاحب القرية في سورة البقرة.

المبحث الثاني

اعتذار أحد صاحبي الجنتين في سورة الكهف.

جاء اعتذار أحد صاحبي الجنتين في سورة تنوعت مشارب الاعتذار فيها، جاء هذا الاعتذار عن رجل ظلم نفسه، واغتر بما أعطاه الله من جنان العنب الوارفة التي تحيط بها النخيـــــــل وتتخللها الزروع والثمار، وملء نفسه البطر والغرور، وظن أن هذه الجنان لن تبيد أبداً، وأنكر قيام الساعة، ولو قامت فسيجد هنالك الرعاية والجنان، فهو من أصحاب الجنان في الدنيا على زعم مايرى، وتباهى على صاحبه الفقير بالجنة والمال والثمر﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَر فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا أَكۡ ثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَر ا٣٤﴾[الكهف:34].

وأما صاحبه الفقير المعتز بعقيدته وإيمانه، يجيب صاحبه المغتر المتبطر منكراً عليه كبره وبطره، ويذكره بنشأته من ماء وطين، ويحذره عاقبة البطر، ويدعو على جنته بالــــــزوال والبوار، ويوجهه إلى المنهج القويم، بالإقرار لله بالربوبية والشهادة له بالوحدانية، والتأدب معه تعالى والثناء على نعمه الجليلة:﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَر تَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَاب ثُمَّ مِن نُّط فَة ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡ رِكُ بِرَبِّيٓ أَحَد ا٣٨ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَد ا٣٩﴾[الكهف:3937]،

ويرجو عند ربه خيرا من جنة صاحبه المتكبر:﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡ تِيَنِ خَيۡر ا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡ سِلَ عَلَيۡهَا

حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠﴾[الكهف:40].

لكن الكبر يتمادى بصاحبه فيعرض عن القبول، فينزل عليه الجزاء من السماء ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ٤٢﴾[الكهف:42]، وتتحول جنته من جنة طيبةٍ زاخرة إلى أرض قاحلة يابسة، خيم عليها الخراب وحل بها البوار، حينها يدرك أن ما أصابه كان بشؤم معصيته، فيتحول من البطر والاستكبار إلى الندم والاستغفار، ويقلب كفيه، وذلك فعل المتلهف المتأسف على ما فات، ويقول:﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢﴾[الكهف:42]، أي ياليتني عرفت نعم الله علي، ولم أكفر به، وهذا ندم منه حين لا ينفع الندم، ويمضي قدر الله عليه، ولا يستطيع أحد أن ينصره.[1]

شذرات في اعتذار أحد صاحبي الجنتين:

1. قد يعبر عن الندم بالأفعال، كما كان من صاحب الجنة حينما أحاط الهلاك بجنته: ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ ٤٢﴾[الكهف:42].

2. اعتراف صاحب الجنة بوحدانية الله وربوبيته، اعتذاراً لله عز وجل عما صدر منه.

3. ترسم هذه الآيات نموذجاً من الاعتذار للمغترين بهذه الحياة الدنيا، وتحثهم على تقديم الاعتذار في الوقت المناسب وقبل فوات الأوان، وإن لم يكن ذلك فسيندم ويقدمه في الحياة الآخرة حينما يدرك الخسارة، ولا ساعة مندم.

4. تنتهي الآيات من غير جلاء وبيان لتوبته وقبولها أو ردها، وهل عوضه الله ما سلبه منه، وفي ذلك يقول السعدي:"ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه، أن صاحب هذه الجنة، التي أحيط بها، تحسنت حاله، ورزقه الله الإنابة إليه، وراجع رشده، وذهب تمرده وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيرا عجل له العقوبة في الدنيا، وفضل الله لا تحيط به

---

[1] تفسير ابن كثير ط العلمية (5/ 142)، النكت والعيون (3/ 305)، الكشاف عن حقائق التنزيل (2/ 724)

الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول".[1]

المبحث الثالث

اعتذار أصحاب الجنة في سورة القلم.

أصحاب الجنة الذين حدثنا القرآن عنهم، كان للمساكين حظاً من ثمر جنتهم على حياة أبيهم، فلما انقطع من الدنيا عزم بنوه على أن يمنعوا المساكين حقهم، واتفقوا على جذاذها مصبحين، وباتوا بهذا الشر ولم يعلموا أن الله لهم بالمرصاد، وأن العذاب يسبقهم إلى جنتهم، فانطلقوا في صباحهم يتحدثون متخافتين زيادة في إحكام الأمر والتدبير، وفي هذه الحالة الشنيعة من القسوة وعدم الرحمة، عاقبهم الله باحتراق جنتهم، فغدوا على حرد ولم يغدوا على حرث، فلما رأوها قالوا في حيرة وانزعاج إنا لتائهون، فلما تأملوا وتحققوا أنها جنتهم، أيقنوا بحرمانهم، وتقدمهم أوسطهم وأصلحهم، وأشار عليهم بأن يعتذروا لربهم من سوء صنيعهم، ويبدو أنه كان له رأي غير رأيهم في بداية أمرهم، ولكنه تابعهم عندما منعوا المساكين حقهم، ولم يصر على الحق الذي رآه، فناله من الحرمان ما نالهم، وهاهو الآن يذكرهم مرةً أخرى، ويرشدهم إلى التوبة والاعتذار من خبث نيتهم[2]، حينها استجابوا لقوله: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٩﴾[القلم:29]، اعترافاً بالمعصية، وتنزيهاً لله أن يكون ظالماً فيما فعل، وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون على ما كان من بغيهم وطغيانهم، وعزمهم السيئ، عسى ربهم أن يبدلهم خيراً

---

[1] تيسير الكريم الرحمن (ص: 477).

[2] تفسير القرآن العظيم (8/ 197)، الكشاف عن حقائق التنزيل (4/ 591)، تفسير القرطبي (18/ 244)، محاسن التأويل (9/ 301)، غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني (ص: 212).

منها، بتوبتهم وعزيمتهم وندمهم على عدم العود إلى مثله: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ٣٠ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ٣١ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ٣٢﴾[القلم:30. 32].

شذرات في اعتذار أصحاب الجنة:

1. إن إشارة صاحبهم ـ أوسطهم ـ في بداية أمرهم على خطئهم وطغيانهم، لم يدخله في دائرة التوبة والاعتذار، ولم يخرجه من دائرة الحرمان مع أصحابه الخارجين عن طاعة الله في إعطاء المساكين حقهم، فلا بد لصاحب الحق أن يثبت على رأيه وتوبته، ولا يجاري في حق الله أحدا.

2. لا تزال نزعة الخير في أوسطهم، فهو الذي قادهم ونبههم على ضرورة تفادي الأمر بالاعتذار لله، وهكذا يجب أن يكون المؤمن في الإرشاد والحث على التوبة إلى الله.

3. استفاقتهم من غفلتهم واستجابتهم لدعوة صاحبهم في تقديم التوبة إلى الله، دليل على قوة نوازع الخير فيهم.

4. استفتاح توبتهم بتسبيح الله تعالى﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا ٢٩﴾[القلم:29]، تنزيه لله عن الظلم فيما فعل بهم، بل هذا من عدل الله، فلما حَرموا حُرموا، أي: لما حَرموا المساكين من جنتهم حُرموا هذا الرزق، فاعترفوا بالمعصية، ونزهوا الله عن أن يكون ظالماً فيما فعل، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، والتسبيح مقدمة الاستغفار من الذنب، قال تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ٣﴾[النصر:3]

5. الاعتراف بظلم أنفسهم ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ٢٩﴾[القلم:29] إقراراً بالذنب، وجاء التأكيد لتحقيق الإقرار والاهتمام به، كما أن حرف (إن) يفيد التعليل للتسبيح الذي قبله، وحذف مفعول ظالمين ليعم ظلمهم أنفسهم بما جرّوه على أنفسهم من سلب النعمة، وظلم المساكين بمنعهم من حقهم في المال، كما أن مجيئ(إن) في قولهم: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ٣٢﴾[القلم:32]، لتأكيد هذه الرغبة والتوبة.

6. اعترافهم بظلم المساكين من أصول التوبة والاعتذار فإن من أصول التوبة تدارك ما

يمكن تداركه.

7. نلحظ الإطناب في قوهلم بعد حلول العذاب بهم: ﴿قَالَ أَوسَطُهُم أَلَم أَقُل لَّكُم لَولَا تُسَبِّحُونَ٢٨قَالُواْ سُبحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ٢٩ فَأَقبَلَ بَعضُهُم عَلَىٰ بَعض يَتَلَٰوَمُونَ٣٠قَالُواْ يَٰوَيلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ٣١﴾[القلم:31-28]؛ لتلقين الظالمين لأنفسهم التوبة والاعتذار قبل فوات الأوان، بأن يكونوا في تدارك أمرهم وسرعة إنابتهم كحال أصحاب هذه الجنة.

8. قوله تعالى:﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبدِلَنَا خَيرا مِّنهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ٣٢﴾[القلم:32]، استأنفوا ندامتهم وتوبتهم رجاء من الله أن يتوب عليهم فلا يؤاخذهم بذنبهم، ويعوضهم عن جنتهم، ولم يرد في ذلك نص صحيح في المقصود بجنتهم، هل طلبوا العوض في الدنيا أو في الأخرة، فإن كان في الدنيا فلنا أن نقول: لا بأس بطلب العوض من الله في الدنيا بعد التوبة من الذنب، فقد جرى منهم ما جرى من سليمان عليه السلام، حينما طلب من ربه بعد التوبة أن يهبه ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده.

9. هل أبدلهم الله خيراً منها؟ يقول السعدي في قوله تعالى:﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبدِلَنَا خَيرا مِّنهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ٣٢﴾[القلم:32]: " فهم رجوا الله أن يبدلهم خيرًا منها، ووعدوا أنهم سيرغبون إلى الله، ويلحون عليه في الدنيا، فإن كانوا كما قالوا، فالظاهر أن الله أبدلهم في الدنيا خيرًا منها؛ لأن من دعا الله صادقًا، ورغب إليه ورجاه، أعطاه سؤله".[1]

المبـــــــحث الرابع

اعتذار قوم موسى عليه السلام.

بينما كان موسى عليه السلام بحضرة ربه، كان قوم موسى من بعده ينتكسون ويتخذون عجلاً جسداً له خوار، لا حياة فيه، يعبدونه من دون الله، وهذه طبيعة بني إسرائيل التي ما تكاد تستقيم حتى تلتوي مرةً أُخرى عن الطريق، فلقد طلبوا

[1] تيسير الكريم الرحمن (ص: 880).

من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهاً يعكفون عليه بمجرد رؤيتهم لقوم وثنيين يعكفون على أصنام لهم، فزجرهم موسى عليه السلام عن هذا الخاطر وردهم رداً شديداً، فلما خلوا بأنفسهم، ورأوا عجلاً جسداً لا حياة فيه، صنعه لهم السامري[1] من الذهب، يخرج صوتاً كصوت البقر، أقبل عليه عامة بني إسرائيل يعبدونه من دون الله، متنكرين لنعم الله عليهم، معرضين عن هديه وشرعه، وحينما رجع إليهم موسى عليه السلام مغضباً غضباً شديداً، علموا بقبح صنيعهم، وتجرّعوا كاسات الأسف ندماً، واعترفوا أنهم خاسرون إن لم يتداركهم الله بجميل لطفه[2]: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾[الأعراف:149].

ويأتي التعقيب القرآني على القصة مبيناً أن الذين عبدوا العجل سيصيبهم غضبٌ من ربهم، وذلةٌ في الحياة الدنيا، وهذا ما حدث لهم حينما أُمروا بقتل أنفسهم، كما جاء في سورة البقرة:﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٥٤﴾[البقرة:54]، وقد كان ذلك امتحاناً لهم على صدق توبتهم.

شذرات في اعتذار قوم موسى إلى الله:

1. حدوث الندم من أصحاب العجل، والندم توبة، وهذا يدل على أنـه لا زال فيهم بقية من استعداد صالح، فقد ندموا حينما تبين لهم ضلالهم، واعترفوا بذنبهم، وعرفوا أنه لا

[1] سبق التعريف به.......

[2] ينظر: جامع البيان(13/ 118)، الهداية الى بلوغ النهاية (4/ 2559)، تفسير القشيري (1/ 572)، تفسير السمعاني (2/ 217)، تفسير القرطبي (7/ 286). ت

ينقذهم من عاقبة ما أتوا إلا تقديم اعتذراهم لربهم، وهذه علامة طيبة دالة على بقية من استعداد في الفطرة للصلاح.

2. التعبير عن ندمهم بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ ١٤٩﴾، والندم يكون في القلب، ولكنه ذكر اليد لأنه: يقال لمن حصل على شيئ: قد حصل على يده أمر كذا، فمباشرة الأشياء في الغالب باليد، قال الله تعالى:﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠﴾[الحج:10]، ولأن الندم وإن حل في القلب فأثره يظهر في البدن، لأن النادم يعض يده، ويضرب إحدى يديه على الأخرى، قال الله تعالى: ﴿ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ٤٢﴾[الكهف:42] أي من الندم، ولأنها آلة القدرة قال تعالى: ﴿ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ ١٧﴾[ص:17]، ويقال: ما لي بذلك يد، أي لا أستطيعه، وهذا الكلام يدل على أن في الكلام كناية عن الندم لأنه ذكر اللازم الحسي له.[1]

3. يظهر في الآية تقديم الندم في الذكر على تبين الضلالة، مع أن المعروف في العادة أن يندم الإنسان على ما علم من ذنبه، ثم يقدم اعتذاره، وللمفسرين فيها اجتهادات:

- يجب أن يكون المقدم مؤخراً؛ لأن الندم والتحسر يقعان بعد العلم بالمعصية والخطأ.
- أو أن هذا لا يحتاج إلى تقدير بل يمكن تقدم الندم على تبين الضلال؛ لأن الإنسان إذا شك في عمله صواب أو خطأ حصل له الندم، ثم بعد تكامل النظر والفكر يدرك أن ذلك خطأ.
- أن من قواعد علم المعاني أن ما لا يجب الترتيب فيه بزمان ولا رتبة يقدم في

[1] ينظر:البحر المحيط في التفسير (5/ 179)، التحرير والتنوير (9/ 112)، وفي العباب: هذا نظم لم يسمع قبل القرآن، ولا عرفته العرب، والأصل فيه نزول الشيء من أعلى إلى أسفل، ووقوعه على الأرض، ثم اتسع فيه فقيل للخطأ من الكلام سقط؛ لأنهم شبهوه بما لا يحتاج إليه فيسقط، العباب الزاخر (1/ 264، بترقيم الشاملة آليا).

سرده الأهم، فإن لم يكن تقديم الندم هنا لسبقه في الزمن، فالأظهر أنه للمبالغة في استشعارهم استحقاق العقاب.

- أن من المعلوم أن العلم بالضلال وحده لا يقتضي العفو والمغفرة إلا إذا ترتب عليه العمل بمقتضاه، وهو التوبة، فإن الذين ضلوا على علم ولم يتوبوا أشد الناس عقابا، فعلم بذلك أن تقديم الندم أهم من العلم بالضلال.[1]

4. يظهر صدق اعتذارهم في اعترافهم: ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾، حيث:

- اعترافوا بعظيم ما أقدموا عليه وهذا كما قال آدم وحواء: ﴿إِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾[الأعراف:23]، ولما كان هذا الذنب وهو اتخاذ غير الله إلها أعظم الذنوب بدؤوا بالرحمة التي وسعت كل شيء ومن نتائجـــــها غفران الذنب.

وأما في قصة آدم فإنها جرت المحاورة بينهم وبين الله تعالى على ما صدر منهما من أكل ثمر الشجرة، بعد نهيه إياهما عن قربانها فضلا عن أكل ثمرها، فبادرا إلى الغفران وأتبعاه بالرحمة إذ غفران ما وقع العتاب عليه آكد ما يطلب أولا.

- أقسموا أنه لا يسعهم بعد هذا الذنب إلا رحمة ربهم التي وسعت كل شيء، قائلين: لئن لم يرحمنا بقبول توبتنا والتجاوز عن جريمتنا لنكونن من الخاسرين لسعادة الدنيا والآخرة.

5. إقرارهم بالعبودية لله:﴿ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا ١٤٩﴾، أي الذي لم يقطع قط إحسانه عنا، استدراراً لعفوه ورحمته.

6. قبول الله توبتهم بعد امتحانهم بقتل أنفسهم، كما جاء في سورة البقرة، وعلى ذلك قد يكون قبول التوبة والاعتذار، بعد الاختبار والامتحان؛ للدلالة على الصدق في ذلك.

---

[1] ينظر: تفسير القرطبي (7/ 286)، تفسير المنار (9/ 176).

المبحث الخامس

اعتـــــــذار بلقيـــــــس

جاء اعتذار ملكة سبأ لله عز وجل في موضع واحد في القرآن لم يتكرر في غيره، في سورة النمل التي تحمل جملة من الاعتذارات فيما يخص سليمان عليه السلام في ملكه الذي وهبه الله إياه، تبدأ هذه الاعتذارات باعتذار حشرة لملك ثم طير لملك، ثم ملكة لملك الملوك سبحانه متضمناً شكراً للملك سليمان عليه السلام، ولذا جاء تسمية هذه السورة بسورة سليمان؛ لأن ما ذكر فيها من ملك سليمان عليه السلام جاء مفصلاً.

هذا وبعد البيان لاعتذار الحشرة والطير فيما سلف من الأبواب، نلتفت هنا لاعتذار الملكة بلقيس لله سبحانه، وكيف جاء الاعتذار؟.

بعد أن جاء الهدهد بالنبأ اليقين عن الملكة بلقيس، مستنكراً عبادتهم للشمس من دون الله، دعاها سليمان عليه السلام إلى الإسلام بكتابٍ ألقاه عليها من بعيد، فبعثت إليه بهدية لتنظر وتتفحص أمره، ومدى حماسه لدعوته وثباته عليه، فرد عليهم سليمان عليه

السلام بالإنذار بجنود لا قبل لهم بها، وإخراجهم من مملكتهم مدحورين مهزومين، وقد اتخذ سليمان عليه السلام مساراً آخر لدعوة بلقيس والتأثير في قلبها، فأحضر عرشها ونكّر بعضه قبل مجيئها، فلما حضرت قيل لها:﴿ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ ٤٢﴾[النمل:42]، قالت:﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾[النمل:42]، ودُهشت من هول ما رأت، وأعد لها سليمان عليه السلام أيضاً مفاجأةً أُخرى، ليتمكن الإيمان من قلبها، ويتخلل أعماقها، فأمرها أن تدخل القصر فإذا به قصراً ممرداً من قوارير، يجري الماء تحته، فلما رأته ظنته لجة ماء، فشمرت عن ساقيها، فقيل لها إنه صرحٌ ممردٌ من قوارير، فهالها ذلك الموقف، و وقفت مدهوشةً أمام هذه العجائب التي يعجز عنها البشر، وتدل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البشر، فرجعت إلى الله، وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره، معلنة إسلامها مع سليمان لله رب العالمين[1]:﴿ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٤﴾[النمل:44]، وقد جاء النص القرآني يُبين سلامة فطرتها من خلال قصتها، معللاً كفرها؛ لنشأتها بين قوم كافرين، وحينما جاءت الدعوات لمست شغاف قلبها وسارعت إلى الإيمان بربها.

شذرات في اعتذار بلقيس لله سبحانه وتعالى:

1. ذكاء سليمان عليه السلام بتعريف بلقيس بالله عز وجل وعظيم قدرته وصدق رسالاته سبحانه، قادها إلى التوبة وحسن الاعتذار، فبادرت إلى الإيمان بالله

---

[1] ينظر: تفسير البغوي (3/ 507)، تفسير المراغي (19/ 144)، تيسير الكريم الرحمن (ص: 606)، في ظلال القرآن (5/ 2643)، التحرير والتنوير (19/ 276).

من غير حوار أو جدال، لأنها عرفت أن سليمان على الحق، ومع الحق، وفي هذا إشارة إلى أن الحكمة في التعريف بالأخطاء تقود إلى حسن الاعتذار.

2. حسنت توبة ملكة سبأ، فأسلمت إسلاما كاملاً، حيث أقرت بألوهية الله بقولها"لله"، وبربوبيته الشاملة المطلقة بقولها"رب العالمين"، فهو الرب سبحانه لجميع الموجودات التي من جملتها الشمس، التي كانت تعبدها من قبل.

3. إن المعاصي ظلمٌ للنفس، وإن الإنسان مؤتمنٌ على نفسه، لذلك اعتذرت بلقيس من ظلمها لنفسها.

4. سلكت بلقيس في اعتذارها درجة التخلية ثم التحلية، فلما رأت الآيات علمت أن سليمان عليه السلام صادق فيما دعاها إليه، وأنه مؤيدٌ من عند الله تعالى، فاعترفت بظلمها لنفسها بإتباع الضلال وعبادة الشمس، وهذه درجة التخلية، ثم صعدت إلى درجة التحلية، وهي التحلي بالإيمان، فأسلمت لله واعترفت أنه سبحانه رب الموجودات جميعها، فلا إله غيره في هذا الوجود.

5. حينما اعتذرت بلقيس لله عز وجل ذكرت معيتها مع سليمان عليه السلام؛ لأنه هو الذي قادها وأرشدها، وهذا من باب الشكر، كما قال السحرة لفرعون: ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠﴾[طه:70]، وهذا يقودنا إلى شكر من كان سبباً في الاعتذار.

6. فضيلة بلقيس ومسارعتها للتوبة فور ظهور الحق لديها، وهذا شأن المنصف العاقل، فلم يمنعها علو شأنها، وعظمة سلطانها، من النظر في صدق الدلائل، والاعتراف بظلمها لنفسها، وهذا يُعلمنا أن الإنسان ساعة يقترف الذنب ويعلم بذلك، عليه أن يعترف ويبادر بالاعتذار مهما بلغ من علو المنصب أو الجاه، فلا يمنعه الكبر من ذلك.

7. ما أجمل تقديم القرآن للاعتذار عن تأخر إسلام بلقيس إلى لقاء

سليمان عليه السلام: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٤٣﴾[النمل:43]، لتأثرها بالبيئة وعقيدة أهل المملكة، فقد منعها عن عبادة الله ما كانت تعبد من الشمس والقمر، وكانت من قوم كافرين غير مؤمنين بوجود الله ووحدانيته.

المبحث السادس

اعتـــــــذار فرعـــــون

بعد أن يئس موسى عليه السلام من فرعون وملئه أن يكون فيهم خير، اتجه إلى ربه يدعوا عليهم، بأن يدمر أموالهم ، ويشدد على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، ومن حقه أن يدعوا عليهم فقد طغوا وبغوا واستكبروا، وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه، فأمر الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام أن يخرج بقومه من بني اسرائيل ليلاً من مصر، ولما علم فرعون غاظه ذلك، وجمع جنوده من مختلف البلاد وسار بهم لحاقاً بموسى وقومه، فأدركوهم وقت شروق الشمس على ساحل البحر، فخاف أصحاب موسى عليه السلام، ولكن موسى عليه السلام الواثق من وعد ربه طمأنهم، فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فانفلق طريقاً في البحر يبساً، وعبر موسى عليه السلام ومن معه، وتبعهم فرعون وقومه غاضبين سادرين في غيهم يريدون إهلاك موسى وقومه، ولكن الله يريد غير ما يريدون، فقد كان دخولهم للبحر نهايتهم وهلاكهم، فبمجرد دخولهم البحر عادت المياه وتراكمت فوقهم الأمواج، وأحاط بهم الموت، وأدرك فرعون أن هذه نهايته حينما قهره الماء

وأحاط به الموت من كل مكان، ونادى فرعون ربه وتاب وآمن: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٩٠﴾[يونس:90]، حين لا ينفع نفساً إيمانها: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ٨٤ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٥﴾[غافر:84 ـ 85]، وكرر فرعون قبول ما كان يُدعى إليه، فأباه استكباراً: ﴿ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠﴾[يونس:90]، فأجابه الله موبخاً، الآن تقر لله بالعبودية، وتستسلم له بالذلة، وتخلص له الألوهية، وقد عصيته قبل نزول نقمته بك، فأسخطته على نفسك وكنت من المفسدين في الأرض، الصادين عن سبيله؟ فهلّا وأنت في مهل، وباب التوبة لك منفتح، أقررت بما أنت به الآن مقر؟.[1]

شذرات في اعتذار فرعون لله:

1. رد الله توبة فرعون مستنكراً مستقبحاً لأفعاله: ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١﴾[يونس:91]، وفي ذلك يقول ابن تيمية:" وهذا استفهام إنكار بين به أن هذه التوبة ليست هي التوبة المقبولة المأمور بها؛ فإن إستفهام الإنكار: إما بمعنى النفي إذا قابل الإخبار، وإما بمعنى الذم والنهي إذا قابل الإنشاء، وهذا من هذا".[2]
2. عدم قبول توبة من عاين العذاب وأيقن الهلاك، لأنها توبة يائسٍ مضطر من غير اختيار، ولذا فعلى الإنسان البدار بالتوبة والاعتذار لله وقت السعة والرخاء، وقبل الإحاطة بالعذاب، ومن رحمة الرحيم التواب أن جعل باب التوبة مفتوح ليل نهار، وفي هذا إيهاب بالمكذبين والعاصي أن يتعلقوا بخيوط النجاة الأخيرة.

---

[1]ينظر: جامع البيان(15/ 194)، تفسير المنار (11/ 388)، تيسير الكريم الرحمن (ص: 171)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (5/ 257)

[2] تفسير شيخ الإسلام(492/3).

1. الرصيد السابق سبب لقبول التوبة والاعتذار، ففرعون حينما قدم توبته لله وبّخه سبحانه بعصيانه السابق وإفساده في الأرض: ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١﴾[يونس:91]، وفي المقابل كان سبب قبول توبة يونس عليه السلام كثرة عمله السابق:﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤﴾[الصافات:143.144]، وقد أثنى عليه سبحانه في ذلك، وبيّناه في اعتذار يونس عليه السلام.

2. ما جاء من رد توبة فرعون واعتذاره لله عبرة لأولي الألباب، وتحذيراً من العصيان والابتعاد عن دين الله، والاستكبار والعلو في أرضه، كما جاء التعقيب القرآني بعد قصته:﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢﴾[يونس:92].

3. التوبة نوعان:

- في حال السعة والرخاء وقبل ورود حياض الموت، لتدارك الهفوات والزلات والعثرات، وهذه نعمة من الله يوفق من شاء إليها بحكمته وعدله، وهي توبة اختيار.
- التوبة حين معاينة الموت والهلاك، وهي انفعالٌ لصاحبها لا فعلٌ له، وحينها لا يقبل من العاصين توبة ولا من الكفار رجوع، وهي توبة اضطرار، وهذا ما حدث من فرعون حين أعلن توبته، وجملة القول في حاله كما قال الشاعر:

أتت وحياض الموت بيني وبينها

وجادت بوصل حين لا نفع الوصل.